# نافذة على علم الاجتماع اللغوي

**أ . عبد القادر سنقادي***

**1 . التعريف:**

نشأ مصطلح علم الاجتماع اللغوي Sociolinguistics ، الذي يعني ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقتها بالمجتمع أي دراسة ذلك التداخل القائم بين التنوعات اللغوية المختلفة وبين بنية مختلف المجموعات الاجتماعية . فهذه العلاقة تملي علينا تحديد نوعية الدراسة التي ينتهجها علم الاجتماع اللغوي ، ذلك لأن حقل اللغة في علاقتها بالمجتمع حقل واسع ، تميزه مختلف تسميات الفروع العلمية التي تتبنى البحث في هذا المجال البالغ التعقيد كاللسانيات العامة ، وعلم الاجتماع ، وعلم اللغة الأنثربولوجي ، وعلم النفس اللغوي ، وعلم اللغة الجغرافي وغيرها من الفروع اللغوية الأخرى .

يعرف Bernard Spolsky علم الاجتماع اللغوي على أنه « المجال الذي يدرس العلاقة بين المجتمع واللغة ، وبين الاستعمالات المتنوعة للغة والبنى الاجتماعية التي يعيش فيها مستعملوا هذه اللغة » .[1] فهو بهذا التعريف يركز على العلاقة التي تربط اللغة بالمجتمع والعلاقة التي تربط بين مختلف الاستخدامات اللغوية وبين مختلف الطبقات الاجتماعية المتدرجة ضمن المجموعة اللغوية الواحدة . وهو إقرار بوجود تباينات وسلوكات ثقافية واجتماعية ولغوية مختلفة ـ تِؤثر وتتأثر ــ ضمن هذه المجموعة ، يقول « من ثم ، فإنه المجال الدراسي الذي يعترف بأن المجتمع يتكون من عدة أنماط وسلوكات متداخلة فيما بينها ومنها ما هو لغوي »[2] ويوضح صبولسكي بأن الغاية من هذه الاستخدامات اللغوية هي تحقيق

* جامعة حسيبة بن بوعلي ، بالشلف ، الجزائر .

(1) Spolsky, Bernard . Sociolinguistics: Oxford (1998) 3rd edition ,2001, p3.

(2) برنارد صبولسكي ، Sociolinguitics ، المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

فعل التواصل والترابط بين أفراد هذه المجموعة ، فيقول « يتمثل أحد أبرز هذه الاستعمالات اللغوية المتنوعة في تبليغ المعنى بالإضافة إلى توطيد العلاقات الاجتماعية والمحافظة عليها »(1).

أما جون لويس كالفي L . J . Calvet ، فيعرف علم الاجتماع اللغوي بأنه دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي يقول « فلا مجال للمقارنة بين اللسانيات العامة التي تدرس اللغات ، وبين علم الاجتماع اللغوي الذي يولي اهتماما بالغا للجانب الاجتماعي لهاته اللغات: فبعبارة أخرى ، إن علم الاجتماع اللغوي هو اللسانيات بعينها »(2) . من هذا التعريف يمكن تحديد غاية علم الاجتماع اللغوي في دراسة اللغة وفي اكتشاف كيف يمكن للعوامل الاجتماعية والحياة ضمن المجموعة اللغوية أن تحدد جملة التباينات ضمن اللغة كنظام قائم بذاته وضمن جانبها ألاستعمالي من قبل المتكلمين بحسب تباين منابع ثقافاتهم وبحسب مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية . وهناك من اللغويين من طرق ، في تعريفه لهذا الفرع ، أدق المسائل التي يحيط بها هذا الأخير . من هؤلاء اللغوي الأمريكي جوشوا فيشمان Joshua Fishman الذي يعرف علم الاجتماع اللغوي على أنه « ذلك العلم الذي يسعى لتحديد من يتكلم ، ولتحديد أي نوعية من أي لغة ، ومتى ، وحول أي موضوع ، ومع أي المتكلمين ؟ »(3) وهو تعريف يسمه بول ميشال فيليبيPaul Michel Fillippi بأنه تعريف « صحفي » وذلك لأنه يحدد وبدقة إشكالات التحري اللسانيl'enquête linguistique . ولا شك أن هذا التعريف لا يختلف كثيرا عن سابقيه إلا أنه يتسم بدقته وتركيزه على قضايا مثل مميزات المنوعات اللغوية ضمن المجموعة اللغوية ، الأمر الذي يساهم في تحديد وتعيين مجموعة التنوعات الاجتماعية والثقافية التي تمخضت عنها تلك المميزات والسمات اللغوية .

أما هودسون Hudson فيعرف هذا العلم على أنه تلك الدراسة التي تعني بدراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع فضلا على قدرة إيضاح طبيعة اللغة بصفة عامة وإيضاح خصائص محددة للغة بعينها .

(1) برنارد صبولسكي ، Sociolinguitics ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(2) CALVET , L . Jean , La Sociolinguistique , Paris, PUF,1993 ,page 20

(3) جوشوا فيشمان ، نقلا عن:

PAUL _ MICHEL FILIPPI , Initiation à la linguistique et aux sciences du Langage , Edit , Marketing , Bargue Paris , 1995 ,p . 102

خلاصة القول أن هناك إجماع بين اللغويين على وسم هذا الفرع بـ « العلم » . والعلم ، على حد تعبير علي عبد الواحد وافي ، بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربط بعضها ببعض والتي تربط بغيرها ، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها »[1]

أما المسائل والقضايا التي يطرقها ويتناولها هذا الفرع فهي عديدة ومتشابكة[2] نذكر منها مسألة اللهجات والتنوعات اللغوية المتواجدة في الوطن الواحد ، وعلاقة ذلك بمسألة اللغة الرسمية ، ومسألة الازدواجية اللغوية والثنائية

و واقع مزدوجي اللغات ضمن المجتمع الذي توجد به لغتان تتسمان بنفس المستوى وينظر إليهما بنفس التقدير والاهتمام وخاصة عندما تحظى هاتان اللغتان بقسط من السلطة السياسية الرسمية ، كما يهتم هذا الفرع بمسألة التعدد اللغوي ومتعددي اللغات .

## 2 . الجذور الفكرية لنشأة علم الاجتماع اللغوي

من بين الأوائل الذين تفطنوا إلى مسألة العلاقة المتواجدة بين اللغة والمجموعات اللغوية التي تستخدم هذه اللغة هم الفلاسفة وعلماء الإثنولوجية التي تعني بدراسة اللغة في علاقتها بالبحوث الخاصة بأنواع السلالات البشرية وأنماط سلوكها ، بالإضافة إلى علماء الاجتماع بوجه عام .

أما مفهوم الاجتماعانية Sociologisme[3] هي فكرة لها قسطها الوفير من اهتمام اللغويين منذ زمن بعيد ، على حد تعبير الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، إذ تعرض لها كثير من العلماء الأوروبيين والأمريكيين وأسبقهم كلهم ابن خلدون[4] الذي سوف نتطرق إليه لاحقا . قبل هذا

(1) علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، دار نهضة مصر ، ط . 7 ، د . ت

(2) سنتناول أهمها بنوع من التفصيل في دراسة لاحقة .

(3) Sociologisme: عندما تبنى الناس المفهوم القائل بأن اللسان حدث اجتماعي أو ظاهرة اجتماعية(سوسور) أطلق ، كما يقول الدكتور عبدالرحمن الحاج صالح ، البعض على هذه النزعة هذا المفهوم الجديد الذي سماه البعض بـ « بالاجتماعوية » إلا أن الحاج صالح يفضل تسميت اجتماعانية على مثال العقلانية والنفسانية وهي تسمية تبنيناها في هذا المقام . مدخل إلى علم اللسان الحديث ، مجلة اللسانيات المجلد الثاني ، جامعة الجزائر ، 1972 ، ص 36 .

(4) الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل علم اللسان الحديث ، مجلة اللسانيات ، جامعة الجزائر ، المجلد الثاني ، 1972 ، ص35 .

سنحاول أن نتصفح بعض من الملامح الاجتماعية في الدرس اللغوي عند العرب وتجلياتها ولو اختلفت مسمياتها بمقابل مسميات ومفاهيم اليوم إلا أن مضامينها تبقى مماثلة لما يناقش اليوم من مسائل متصلة بهذا الفرع .

## 2.1. وقفة عند ظاهرة «الاجتماعية» في الدرس اللغوي عند العرب:

كان للعرب قديما نصيبهم الوافر والسباق في التعرض لدراسة العلاقة بين اللغة ومختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وأثر حضارة المجتمع ككل ونظامه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في اللغة وظواهرها المختلفة ، فتكلموا على أثر التركيب الاجتماعي للمجتمع الإسلامي على ظهور ظاهرة التدرج الاجتماعي ، كما بحثوا آثار الإسلام على اللغة وما جاء معه من كلمات جديدة غير عربية الأصل . كما بحثوا الأثر الجغرافي في اللغة وسلامتها حين عرضوا لفصاحة اللهجات ، ودرجاتها ، ونقاوتها ، كالذي فعله ابن خلدون في **مقدمته** ، وغير ذلك مما يدل على فطنتهم إلى تلك العلاقة القائمة بين اللغة والحياة الاجتماعية ، وبحثهم أثر المجتمع وتمظهراته المختلفة في اللغة .

وحيث لا يسمح المقام بالاستطراد إلى تلمس المسائل المتعلقة بعلم الاجتماع اللغوي في التراث العربي بشكل أوسع ، سنحاول التطرق ، وبشكل وجيز ، إلى التدرج الاجتماعي وأثر ذلك على التدرج اللغوي وملامح الوضع والاستعمال مع الإشارة إلى دور الدين الإسلامي في نظرته إلى هذه المسألة وتأثيره على اللغة العربية من خلال قبولها لكلمات جديدة غير العربية الأخرى ضمن نصوصها المقدسة ، كما سنتناول مسألة الاكتساب اللغوي عند العرب من خلال تصفح **مقدمة** ابن خلدون ، مع الإشارة في هذا المقام إلى الكيفية التي كان ينظر إلى اللغات المجاورة للغة القرآن وأثر ذلك على سلامة اللغة العربية ، وهو ما يعرف اليوم بمصطلح « الثنائية » .

### 2.1.1. التدرج اللغوي الاجتماعي عند العرب

إن ظاهرة التمايز والتفاضل بين الناس ظاهرة لها بعدها التاريخي السباق في المؤلفات العربية التي سبقت علماء الاجتماع في العصور الحديثة . وإن مختلف الوقفات التي حددها علماء القرن العشرين في هذا الشأن ، قد حددها مفكرو التراث العربي والإسلامي على وجه الخصوص .

تعد مسألة التدرج الاجتماعي أو ما يسمى باللغة الإنجليزية Social Stratification ظاهرة تعتمد على العديد من العوامل التي تتباين من مجتمع إلى آخر ، كما أنها ظاهرة متسمة بحركيتها ونشاطها الدائم غير المستقر ، وذلك لشدة اتصالها وتفاعلها وحركية وديناميكية المجتمع ذاته . ولاشك أن لدراسة مثل هذه الظواهر فوائد جمة منها:

ـ السعي لتحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية وعلمية منشودة .

ـ أهمية فهم التركيبة الاجتماعية في عملية الإنتاج وتحقيق التطور المنشود .

ـ المساهمة في بناء إطار معرفي يمكن من خلاله بلورة مختلف الاتجاهات النظرية والعلمية لمفكري التراث العربي الإسلامي وبعض من مفكري وفلاسفة الفكر الاجتماعي المعاصر .

### 2.1.2. التدرج الاجتماعي في الإسلام:

وردت مسألة التدرج في القرآن الكريم تحت ميزان « الدرجات » ، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(1) ، وقال تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(2) وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(3) .

و لقد فسر العلماء هذه الآيات على أنها دلالة على سنة من سنن الله الدالة على تفاوت الناس في حياتهم ومعاشهم ومستواهم العلمي والاقتصادي والإيماني . فمنهم الغني ومنهم الفقيرو منهم المؤمن ومنهم ما دون ذلك ، ومنهم الحكيم والكيس ومنهم الغبي والبليد ومنهم القوي ومنهم الضعيف وتلك سنة الله في خلقه أجمعين ، وكل ميسرٌ لما خلق له .

أما من الناحية اللغوية ، نجد كثيرا من الألفاظ والمصطلحات

(1) الآية 165 من سورة الأنعام .
(2) الآية 32 من سورة الزخرف .
(3) الآية 71 من سورة النحل .

المتداولة سابقا في حياة المجتمعات العربية الإسلامية تدل على شيء من المفاضلة بين الناس إذ يقال مثلا: أكثرهم فضلا ، أكرمهم منزلا ، أجزلهم عطاءً ، علية القوم ، عامة القوم ، خاصة القوم ، الوجهاء ، الأحرار ، الأشراف ، رعاع الناس ، غوغاء الناس ، . . . وغيرها . ولا شك إن لظاهرة التدرج معاييرها الخاصة بها ، وأسبابها المؤدية لها ، ومن المواقف التاريخية المحددة لهذه الظاهرة نذكر مثلا العصبية[1] التي ما مدحها الإسلام قط ، إلا أنها سببا وجيها في بروز ظاهرة التدرج هذه .

فلقد خصص لها ابن خلدون فصلا في مقدمته وجعلها جزءا أساسيا من التكوين السياسي للمجتمع العربي ذاته . إذ يرى هذا الأخير أن العصبية موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم ، واستدل بقوله تعالى ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾[2] ومن دونها لا يقع الافتراق المؤدي إلى الاختلاف والتنازع لقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

و لكي يرتقي هذا المعيار إلى درجة الحمد والاستحسان يجب أن تكون أداة حق وعدل وأمر بمعروف ونهي عن منكر .

وهناك معيار آخر يدخل في تنظيم هذه الظاهرة وهو معيار العلم ودرجاته ، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[4] ، ورفع الإسلام المتعلمين العاملين درجة على المتعلمين ، ورفع المتعلمين على الجاهلين درجات . قال ﷺ « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[5] ، كما ذكر ابن خلدون بعض المعايير الأخرى في ترتيب أفراد المجتمع وتدرجهم وهما معيار الجاه والمال ، يقول: « ثم إن الجاه متوزع بين الناس ومترتب بينهم طبقة بعد طبقة ينتهي

(1) لقد عرف رسول الله ﷺ في حديث أخرجه أبو داود ، عن وائلة بنت الأسقع أنها سمعت أباها يقول: قلت: يا رسول الله ، ما العصبية ؟ قال: أن تعين قومك على الظلم . إلا أن الإسلام نبذها كما ذكرنا ، إذ قال ﷺ: « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » رواه أبو داود .

(2) الآية 14 من سورة يوسف .

(3) الآية 251 من سورة البقرة .

(4) الآية 9 من سورة الزمر .

(5) حديث رواه الترمذي .

في العلوم إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عـالية وفي السفل إلى مـن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه ، وبـين ذلـك طبقـات متعـددة ، حكمة الله في خلقه بما ينتظـم معاشـهم وتتيسـر مصـالحهم ويـتم بقـاؤهم (. . .) ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران ، من مدينة أو إقليم لها قدرة على دونها من الطباق ، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد من هذا الجـاه داخل على الناس في جميع أبواب المعـاش ، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه ، فإن كان متسعا كان الكسب الناشـئ عنـه ذلـك ، وإن كان ضيقا وقليلا فمثلـه ، وفاقد الجاه وإن كان له مـن مـال فـلا يكـون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله وعلى نسبة سعيه ذاهبا وآيبا في تنميته كأكثر التجار ، وأهل الفلاحـة في الغالب ، وأهل الصنائع كذلك ، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم ، فإنهم يصيرون إلى الفـقر والخصاصـة في الأكثر »[1] .

من هنا نلاحظ أن معيار الجاه أساسي في تحديد مرتبة ودرجة الفرد الاجتماعية ضمن الجماعـة ، وأن المال والوظيفة لا تسدان لوحـدهما هـذه الحاجة .

ولا شـك أن لظـاهرة التـدرج الاجتمـاعي دوره الرئيسـي في تـدرج تنوعه اللغوي المتمثل في أساليب الكلام المتفاوتة

و في تعدد اللهجات وفي ثراء المدونات اللغوية وفي فقـر بعضـها ، وفي تنـوع مفرداتهـا وعباراتهـا ومسـمياتها بحسـب موقعهـا الاجتمـاعي المستخدمة فيه . وأصدق مثالا لهذا الواقـع ولنوعية لغتـه وصـف الجـاحظ لحياة رجل البادية « ألا ترى البدوي في بيت من قطعة خيش ، كلبه معه في بيته ، لباسه شملة من وبر أو شـعر ، ودواؤه بعـر الإبـل ، وطيبـه القـطران وبعر الظباء ، وحلي زوجتـه الـودع ، وصـيده اليربـوع ، وهـو في مفـازة لا يسمع فيها إلا صوت بـومة وعـواء ذئب ، وهو قانع بذلك ، مفتخر به »[2]، فكلمـات مثـل: الخـيش ، والشـملة ، والبعـر ، والـودع ، واليربـوع ، . . .

(1) ابن خلـدون ، المقدمـة ، تحقيـق درويـش الجويـدي ، بـيروت ، لبنـان ، المكتبـة العصـرية ، ط . 1995 ، ص . 362 .

(2) نقلا عن د . عبد العزيز بن علي العايب ، التدرج الاجتماعي في التراث العربي الإسلامي ، مجلـة التراث العربـي ، دمشـق ، سـوريا ، العـدد 93 ، دكانـة المكتـب ، يوسـف محمـد ، بـيروت ، دار الطليعة ، 1985 ، ص . 120 .

وغيرها تعكس الحياة الاجتماعية المتسمة ببساطتها وعفويتها لرجل البادية في ذلك الوقت ، فضلا عن ذلك فهي تعكس جانبا من جوانب اللغة العربية في ذلك المقام وفي ذلك الزمان ، ولا ضير أن سكان البادية ــ آنذاك ــ عامتهم قد تواضعوا على استخدام هذه الملفوظات في محيطهم ومعاشهم قناعة منهم في تواصل مصالحهم ومصالح معيشتهم .

**2.1.3. ملامح الوضع والاستعمال من خلال نظرة ابن خلدون:**

اهتم علماء العرب قديما بالبحث عن الفوارق اللغوية الناتجة عن الفوارق القائمة في المجموعات اللغوية وعن تباين مصادر التلقي ومنابع الثقافة والتكوين وما ينتج عن ذلك من تباين في البعد الدلالي للفظ . فهي دراسة ركزت اهتمامها على دراسة تنوع معنى اللفظ ، وفق استعماله اللهجي المتواضع عليه ، يقول ابن خلدون « لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها ، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج الناس إلى فقه في اللغة[1] عزيز المأخذ ، كما وضع بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر »[2] وعلى هذا فإن الفقه على حد تعبير الدكتور الحاج صالح ، عند العرب هو امتداد وفرع لعلم اللغة أو علم متن اللغة الذي يدرس « الموضوعات اللغوية » أي ما وضع من الألفاظ المعينة السماعية (. . .) وقصره المتأخرون على أوضاع المفردات فقط »[3] فضلا عما تقدم يورد ابن خلدون في مقدمته اعتبار وضع المتكلم والسامع لتمام المعنى وإفادتها بقوله « ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة على أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج للدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة »[4] وهذا ما يفسر سياق الحال لدى المتكلم والسامع معا في فهم اللفظ وحصول التواصل والمعنى المتوخى منه ، يضيف ابن خلدون قائلا: « ولكل مقام عندهم مقال يختص به كحال الإعراب والإبانة ، ألا ترى قولهم **زيد**

(1) الفقه هو العلم بالشيء والتعمق في فهمه .

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، مكتبة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية ، القاهرة ، مصر ، د . ت ، ص . 412 .

(3) الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث ، مجلة اللسانيات ، المجلد الثاني ، 1972 ، الجزائر ص . 52

(4) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع السابق ، ص . 313

**جاءني** مغاير لقولهم **جاءني زيد** من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم (. . .) وكذا التعبير أن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الإسناد على الجملة »[1] ، ومن أوجه الوضع والاستعمال في اعتبار الكلام وفي تحديد مقتضاه وغايته ما يعرف بالاستعارة ، كما في قولنا « **زيد أسد** » فإن غايتنا ليست حقيقة الأسد الملفوظة وإنما نريد شجاعته اللازمة المسندة إلى زيد .

و يلخص ابن خلدون قوله بأن « هذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ المفرد والمركب ، إنما هي هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه »[2] كما يشير ابن خلدون إلى مسألة الاكتساب اللغوي بحس لغوي دقيق ، على حد تعبير الدكتور ميشال زكريا ، والتي تخضع لقوانين تلقي الكلام وأساليب الخطاب وكيفية التعبير من جيل إلى جيل ، مما يؤثر بالا شك في توحيد نوعية لغتهم وفي تباين لهجتهم عن غيرهم ، يقول ابن خلدون: « فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها »[3] ، ولضرورة النشأة الطبيعية ضمن المجموعة الكلامية دورها الهام في اكتساب اللغة وخاصة في مرحلة الطفولة الأولى وبشكل متدرج ، يضيف قائلا: « والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة »[4] حتى قال الجاحظ: « ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام في أعالي تميم »[5] . ويؤكد ابن خلدون على عملية الحفظ وكثرة الاستعمال في اكتساب اللغة فيقول: « وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا »[6] وهو بهذا يركز على توحيد منبع التلقي[1]

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(2) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، ص313 .
(3) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، ص416 .
(4) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(5) نقلا عن د . كمال بشر ، علم اللغة الاجتماعي(مدخل) ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة 1997 ، ص5 .
(6) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

والاكتفاء به دون غيره من المنابع الأخرى ، هذا المنبع الذي يخصه في كلام العرب وحده فيقول: « إن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسخوا عليه تراكيبهم فينسخ هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم» . حتى أنه يهون من منهجية الحصول على هذه الملكة عن طريق التعلم التي تخضع لقوانين وقواعد لغوية بحتة ، فيقول: « إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة »[2] ، ويستدل في هذا المقام بمن تساءل عن سبويه والفارسي والزمخشري ، وأمثالهم على أنهم كانوا أعاجما مع حصول هذه الملكة لديهم فيقول: « فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا أعاجما في نسبهم فقط وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب »[3] . كما أشارت تلك الوقفات اللغوية الثرة إلى مسألة وجود اللغتين ضمن المجموعة اللغوية أو الكلامية الواحدة وكيف تؤثر لغة على أخرى بحسب منزلة ومرتبة كل منهما ، وهو ما تسميه اليوم الدراسات اللغوية الراهنة بظاهرة الازدواجية اللغوية bilingualism أو الثنائية اللغوية diglossia ، فكانت نظرة ابن خلدون إلى هذه المسألة متسمة بشيء من النفور وغير الحمد مخافة منه على ـ طُهر ـ اللغة العربية من الدخلاء ، ذلك لأنها توهن من قوة اللسان العربي المبجل حتى أنه يستخدم ، للإشارة على هذا النفور ، كلمة « فساد اللسان العربي » ، فيقول: « وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن مقصوده لكثير من المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي »[4] .

---

(1) يركز كلامه هنا على اكتساب اللسان العربي بصفة خاصة ، ولعل هذا المنهج يتماشى وجميع اللغات المعروفة المراد اكتسابها .

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع السابق ، ص421 .

(3) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، ص422

(4) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع نفسه ، ونفس الصفحة . حتى أنه أورد مثالا على ذلك بقوله:

### 2.1.4. أثار الإسلام على اللغة العربية:

لعل من بين المسائل اللغوية التي جاء بها الإسلام من خلال مصدريه القرآن والسنة النبوية ، مسألة الأحرف السبعة[1] سنشير في هذا المقام إلى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن ، عن عمر ابن الخطاب « رضي الله عنه » قلت يا رسول الله: « إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنها » ، فقال ﷺ: « أرسله ، اقرأ » ، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال ﷺ: « هكذا أنزلت » ثم قال لي: « اقرأ » فقرأت ، فقال: « هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه »[2] ، أما حقيقة هذه الأحرف وماهيتها فلم يتفق العلماء على حقيقة هذه الأخيرة ، حتى أن أوجه تفسير هذه الأحرف بلغ الأربعين تفسيرا ، وبما أننا لسنا في مقام الفتوى سنكتفي في هذه الوقفة بذكر القول الراجح الذي يتصل بدراستنا هذه المتعلقة بتباين اللهجات والمنوعات اللغوية وترسيم الدين الإسلامي لها من خلال تشريعه لجواز قراءة القرآن بها ، فكما يقول الدكتور أمير عبد العزيز: « وهو أن المراد سبع لغات لسبع قبائل من العرب ، ولا يعني ذلك أن يرد في الحرف الواحد سبعة أوجه ، بل يعني أن القرآن سبع لغات متفرقة فبعضه نزل بلغة قريش وبعضه نزل بلغة هذيل وبعضه نزل بلغة تميم وبعضه نزل بلغة أزد وربيعة وبعضه بلغة هوزان »[3].

و ما يؤيد هذا القول ، هو قول ابن عباس « رضي الله عنه » الذي يقول: « نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز ، يعني سعد بن بكر وحبشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وهؤلاء كلهم من هوزان »[4] .

---

« كتب بعض كتاب القيروان إلى صاحب له: يا أخي ومن لا عمدت فقده أعلمني أبو سعيد كلاما إنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهئا لنا الخروج وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله » .

(1) الحرف في اللغة معناه الوجه ، أو الطريق ، إلا أن القول الراجح عن حقيقة هذه الأحرف السبعة ، كما سنرى لاحقا ، على أنها سبع لغات أو لهجات لقبائل عربية .

(2) حديث رواه البخاري .

(3) الدكتور أمير عبد العزيز ، دراسات في علوم القرآن ، دار الشهاب ، الجزائر ، ط . 2 ، 1988 ، ص88 .

(4) الدكتور أمير عبد العزيز ، المرجع نفسه ، ص9 .

وهناك مسألة أخرى لها أثرها البليغ في عملية إثراء اللغة العربية بإضافة كلمات ومفردات جديدة لمدونتها[1] العريقة من خلال نزول القرآن الكريم ببعض الكلمات غير العربية الأصل ، ولا ندري ما السر في ذلك ، أهو دعوة لتعايش اللغات ونبذ الا ـ تعايش بين الأمم الناتج عن الأسباب اللغوية ، وأن الناس على اختلاف لغاتهم سواسية أمام الخالق ، أم إشارة إلى أن مسألة المسميات و« المصطلحات » مسائل ثانوية إذا تأسست رابطة الأخوة والتسامح والتعاون لبلوغ الهدف والغاية الواحدة . وسنتطرق في هذا الإطار إلى جملة من الكلمات غير العربية الأصل والتي وردت في القرآن الكريم منها[2]:

ـ الأرائك: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 31) معناها السرر بلغة الحبشة .

ـ استبرق: ﴿وَإِسْتَبْرَق مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 31) معناها الديباج الغليظ بلغة العجم .

ـ أسفارا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: 05) معناها الكتب بالسريانية .

ـ الرقيم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾(الكهف: 09) ومعناها اللوح بلغة الروم .

ـ سرادقها: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29) ومعناها سورها الملتهب بلغة فارس .

ـ سلسبيل: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا ﴾ (الإنسان: 18) ومعناها سهل المساغ في الحلق بلغة العجم .

---

(1) وهذا نفسه الذي عرفته كثير من لغات المستعمر ، كاللغة الفرنسية ، وبعد احتلال فرنسا الجزائر لأكثر من قرن ، تستخدم اليوم في اللغة الفرنسية كلمات عربية الأصل ضمن مدونتها منها: kif, toubib, Gourbi , kif ـ وقبلها دخلت إلى الفرنسية كلمات أخرى للحروب الصليبية منها: Emir، coton , calife ، فضلا عن سبيل الاستعارة من لغات أخرى كاللغة الإنجليزية ، نتيجة للتداول الواسع ، نذكر مثلا: end ـ Cash flow , week

(2) انظر شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، د . ت ، ص137 .

ـ قسورة: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المدثر: 51) ومعناها الأسد بلغة الحبشة .

و هناك كلمات كُثر مثل: « كافورا ، كفلين ، كنز ، لينة ، مشكاة ، مرقوم ، ناشئة ، هدنا ، وزر ، غساق ، الجبت ، أباريق . . . وغيرها من الكلمات غير العربية الأصل التي اهتم علماء اللغة العرب ، وعكفوا على توضيح مصدرها ومعناها حي يسهل فهم القرآن الكريم فهما سليما لا يشوبه درن ولا يحيف عن فهمه جاهل لهذه الكلمات .

## خلاصة

كانت الغاية من التعرض إلى هذه المسائل هو محاولة منا الوقوف على بعض من مآثر التراث العربي في المجالات المتعلقة بالبحث في اللغة وعلاقتها بالمجتمع ، كمسألة اللهجات ، والاكتساب اللغوي ، والتدرج اللغوي والاجتماعي وظاهرة تغير اللغة وتطور مدونتها corpus بتطور مفرداتها وملفوظاتها ، مبينين في ذات الوقت دور العرب الأوائل في الاهتمام بهذه القضايا ، قبل أن يهتم بها غيرهم ، مع هذا يمكن الاعتراف بأن ما جاء به العرب سابقا في هذا المقام لم يحدد ولم يؤسس رقعة علمية واضحة المعالم كتلك التي شهدتها مدارس لغوية غير عربية أخرى كما سنرى لاحقا ، بل بقيت تلك الوقفات والإشارات « الفردية » المتصلة بعلاقة اللغة بالمجتمع مجرد اجتهادات منعزلة لم تلق الاهتمام اللازم والعناية الكافية ، الأمر الذي جعلها عرضة في بعض الأحيان للنسيان واللامبالاة .

### مراجع البحث:

1ـ القرآن الكريم

**مراجع عربية :**

2ـ ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق درويش الجويدي ، بيروت ، لبنان ، المكتبة العصرية ، ط . 1995 .
3ـ ابن خلدون ، المقدمة ، مكتبة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية ، القاهرة ، مصر ، د . ت .
4ـ أمير عبد العزيز ، دراسات في علوم القرآن ، دار الشهاب ، الجزائر ، ط . 2 ، 1988 .
5ـ دكانة المكتب ، يوسف محمد ، بيروت ، دار الطليعة ، 1985 .
6ـ سنن أبي داود .
7ـ سنن الترمذي .
8ـ السيوطي جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، د . ت
9ـ صحيح البخاري .

10ـ عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل علم اللسان الحديث ، مجلة اللسانيات ، جامعة الجزائر ، المجلد الثاني ، 1972 .
11ـ عبد العزيز بن علي العايب ، التدرج الاجتماعي في التراث العربي الإسلامي ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، سوريا ، العدد 93 .
12ـ علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، دار نهضة مصر ، ط . 7 ، د . ت.
13ـ كمال بشر ، علم اللغة الاجتماعي(مدخل) ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة 1997 .

## مراجع أجنبية:

14 -CALVET , L . Jean , La Sociolinguistique , Paris, PUF,1993 ,page 20
15- PAUL _ MICHEL FILIPPI , Initiation à la linguistique et aux sciences du Langage , Edit , Marketing , Bargue Paris , 1995 ,p . 102
16 - Spolsky, Bernard .Sociolinguistics, Oxford ,3rd edition ,2001